# العلامة فضل حق الخير آبادي في ضوء قصائده الغراء

د/ عبد الناصر علي*

**ملخص**

*[ كانت شبه القارة الهندية معروفة بثراوتها التجارية والثقافية لفترة كبيرة من تاريخها الطويل وكانت لها صلات مع الأمم حولها لاسيما بلاد فارس والجزيرة العربية، وهذه الظاهرة لها قد حفزت الشركة الشرقية الهندية للتجارة معها ثم السيطرة عليها. وقد عزم سكانها على إجلاء المستعمرين الأجانب من البلاد تحت زعامة الملك المغولي بهادر شاه ظفر وشارك في هذه الثورة من العلماء والأدباء والشعراء المتضلّعين في الثقافة والبارعين في اللغة العربية وآدابها وكان من أبرز هؤلاء العلماء والمثقفين العلامة فضل حق بن فضل إمام الخيرآبادي (1797- 1961) الذي لعب دورا رياديا في استنهاض الهمم ورفع المعنويات للثوار والمكافحين في سبيل الحرية والاستقلال ولسوء الحظ فشلت الثورة ونفي العلامة إلى جزيرة أندومان لقضاء بقية حياته فيها فلم يزل رهين الحبس في الجزيرة المذكورة حتى وافته المنية بتاريخ 20 من أغسطس 1961. وهنا كتب العلامة القصيدتين باللغة العربية وتكمن في طياتهما الأحوال الحقيقية عن المعارك التي دارت أثناء الثورة بين المواطنين الهنود ومستبديهم الغاشمين وعن المظالم والمحن التي مر بها العلامة خلال أيام سجنه في جزيرة أندمان، فهاتان القصيدتان وثيقتان تاريخيتان مهمتان لأن العلامة رأى كل ما حدث أثناء الثورة بعينيه ثم ذكرها في كتابه الثورة الهندية نثرا وفي القصيدتين شعرا .]*

## الكلمات المفتاحية:

الثورة، الشركة الشرقية الهندية، الاستعمار الأجنبي، القصيدة الرائية، والدالية/ والميمية، والهائية، والهمزية، أندمان.

تعتبر الهند من الأمم العريقة ذات الثقافة والحضارة العالية القديمة، التي كانت لها على مر التاريخ صلات مع الأمم حولها لاسيما بلاد فارس والجزيرة العربية، ولكون أرض الهند خصبة وموسمها معتدلا وموقعها جذاباً على خريطة

* المحاضر الضيف، مركز الدراسات العربية والإفريقية ، بجامعة جواهر لال نهرو، دلهي الجديدة.

العالم، رغب الأجانب في التجارة معها ثم بثوا سيطرتهم عليها، وتتضح أهمية الهند من أقوالهم ورحلاتهم إلى الهند كما قالوا: أن المحصولات والمنتوجات الهندية عجائب الدهر ونوادرها، وفي رد على سؤال عمر رضي الله عنه قال سائح: بحرها در وجبلها ياقوت وشجرها عطر [1].

وهذه الظاهرة الباهرة لهذا البلد قد حفّزت الشركة الشرقية الهندية بريطانية المستقر على شدّ الرحال متوجهة الى شبه القارة الهندية قبيل أواخر القرن السابع عشر الميلادي ففي بداية الأمر لم يكن من أهداف هذه الشركة إلا نقل البضائع التجارية من القارة الهندية إلى الدول الأوربية وكسب الأرباح الفادحة ببيع هذه البضائع الهندية في الأسواق الأوربية ولم تزل هذه الشركة تزاول هذه التجارة الرابحة حتى وجدت الفرصة للتدخل في الشؤون الداخلية للبلاد وللتآمر مع القوات المناهضة للدويلات المحلية وبمرور الزمن شاءت الأقدار أن تكون النصرة حليفا لهذه الشركة التجارية في تحقيق مطامحها السياسية والإدارية وبدأت الدويلات الهندية تتساقط واحدة تلو الأخرى كأوراق خريف الشتاء وحتى أصبحت الهند كلها تحت سيطرة الاستعمار الاوربي.

قد التهبت نار الثورة في مدينة "ميرت" الكائنة على بعد سبعين كلو ميتر من عاصمة البلاد دلهي بسبب الخراطيش المخلوطة بشحوم الأبقار والخنازير فلما علم الهنود العاملون في الجيش البريطاني حقيقة هذه الخراطيش رفضوا استعمالها بدليل أن لمس هذه الخراطيش أو فتحها بالفم قبل استعمالها ممنوع منعا باتاً حسب تعاليمهم الدينية. وبالرغم من ذلك عندما أجبرهم الضباط البريطانيون على استخدامها أطلق واحد منهم النار عليهم وأردى بعضهم قتيلا وإثر ذلك أجريت محاكمة هذا العسكري الهندي وتم شنقه وهذه الأمور كلها أذكت عواطف المواطنين الهنود فهم عقدوا العزم على إجلاء المستعمرين الأجانب عن البلاد تحت زعامة الملك المغولي الأخير بهادر شاه ظفر.

وفي هذه المبادرة الثورية شارك كثير من العلماء والأدباء والشعراء المتضلّعين في الثقافة والبارعين في اللغة العربية وآدابها وتكاتف الثوار المناضلين

[1] - الأخبار الطوال للعلامة أبي حنيفة أحمد بن داؤد الدينوري، ص 310، الطبعة الأولى سنة 1330هـ بمطبعة السعادة بمصر

ضد النفوذ الأجنبي واستخدموا بدلا من العدة والعتاد أقلامهم ويراعهم للمحاربة ضد العدو الغاشم الذي قد احتل البلاد بمنتهى المكر والخداع وكان من أبرز هؤلاء العلماء والمثقفين العلامة فضل حق بن فضل إمام الخيرآبادي (1797-1961) الذي لعب دورا رياديا في استنهاض الهمم ورفع المعنويات للثوار والمكافحين في سبيل الحرية والاستقلال وهو في هذا الأمر لم يكن خائفا من قوة الاستعمار الأجنبي الذي كان بحوزته أسلحة فتاكة مدمرة وفي حين اندلعت الثورة أنه كان موظفا مرموقا في بلاط الأمير لدويلة "الور" وكان يعيش في مهد الهناء والرخاء والسعادة إلا أنه قد ولى وجهه عن كافة وسائل العيش الرغد وخاض بدون تردد المعركة ضد الإنجليز الغاشم واقترب لأجل هذا الغرض من الملك المغولي بهادر شاه ظفر الذي كان يتشاور معه في عديد من الأمور الإدارية والحربية وكان يعتمد عليه اعتماداً كاملا وكان العلامة هو الآخر يأتمنه ويعتبره رمزاً لشوكة الإسلام والمسلمين في الهند.

ومن المعروف أنه بإيعاز من الجنرال بخت خان أحد زعماء الثورة جمع ثلّة من العلماء والفقهاء في المسجد الجامع الكبير في دلهي وطلب منهم إصدار فتوى ضد الاستعمار البريطاني وأعماله التعسفية وهذه الفتوى قد حثّت المواطنين كافة على شن الإغارة على مؤسسات ومستعمرات ومعسكرات الإنجليز في الهند وكانت النتيجة لذلك أن أكثرية الشعب الهندي قد شاركت في عملية الجهاد ضد الحكومة الأجنبية وكبدتها بخسائر فادحة إلى أن الحكومة البريطانية بإنجلترا قد تدخّلت في الأمور الهندية وانتزعت السلطة من الشركة الشرقية الهندية وبدأت تحكم بلاد الهند مباشرة وإثر ذلك أعلنت الملكة فيكتوريا العفو العام لكل من شارك في الثورة وبذلت جهدا جهيدا لإعادة الأمن والأمان في الهند.

فخرج كثير من الثوار من مخابئهم ومكامنهم وكان العلامة الخيرآبادي واحداً منهم. فقد خرج اعتمادا على ما أعلنته الملكة من العفو العام إذ أنه لم يكن يعرف أن الإعلان المذكور هو مجرد مكيدة بمثابة حيلة الدبك التي تنخدع بها الطيور وتصير بسهولة فريسة للصياد وقد أشار العلامة الخيرآبادي بنفسه إلى هذه الحقيقة المؤسفة قائلاً:

إني بلاني خدعـــة امــرأة بلى — كيد عظيم ما تكيد النساء
يخلبن خلقـــا بالمــواثق ثم لا — لعهودهن وعهدهن وفاء

فدعت بأن قد شهرت أن آمنت قوماً نبت بهم الديار وناؤوا
إذ غرّهم ميثـــاقها رجــعوا الى أوطانهم مستبشرين وفاؤوا
فأتيت داري آئبــــاً إذ غـــرّني إيمان كافرة لها استيلاء [1]

ولما عرف العلامة أن السلطات الأجنبية خبيرة بأعماله الثورية وتحاول لإلقاء القبض عليه. فغادر بلدته وترك جميع ممتلكاته واختفى إلا أنه بعد الوقوف على إعلان العفو العام من قبل الملكة فيكتوريا خرج من مكمنه والسلطات الأجنبية ألقت القبض عليه واتخذت الإجراءات لمحاكمته وتم مثوله بين يدي المحكمة وقد جرت محاكمته لفترة وجيزة ويقال أن قاضي المحكمة كان يعرف منزلته العلمية ويقدر إنجازاته في مضمار الحكمة والفلسفة والأدب فكان متودّداً له ومتعطّفاً عليه وكان بقلبه يحرص على إطلاق سراحه ومن ثمّ كان يبحث عن مواطن الضعف في قضيته لتبرئته من تهمة الثورة وأنه قد وجد هذه الفرصة عندما قال الجاسوس الذي ألقاه في هذه المعضلة إن هذا الرجل المتهم (العلامة الخيرآبادي) ليس ممن وضعوا توقيعاتهم على محضر الجهاد والأمر قد اشتبه عليه وفي الحقيقة الشخص الذي رأيته يوقع المحضر هو شخص آخر واسمه فضل حق الشاهجانبوري وبما أن القاضي كان في انتظار مثل هذا البيان فإنه أصدر حكما يحمل براءته من اتهام مشاركته في أعمال الثورة ولكن العلامة أدهش جميع الحضور وقال أنا هو الشخص الذي يوجد توقيعه على المحضر أنا هو الشخص الذي حرض العلماء على إعداد وإجراء فتوى الجهاد وأنا المسؤول عن تحركات ثورية ضد الحكام الأجانب في بلدي. وقد وقع القاضي في موقف حرج بسبب كلمات العلامة السابقة الذكر واستطرد العلامة قائلا: يوم الحشر لا أودّ أن أقابل ربي وعلي وزر الكذب ولذا يجب علي أن أقول قول الحق ولو أتى هذا الحق بالمحن والأحزان. فبهذه الشهادة على نفسه لم يبق له أي منفذ لإطلاق سراحه وكذلك لم يبق للقاضي أي مبرر لإنقاذه من العقوبات فإنه بقلب كئيب أصدر حكما لنفيه المؤبد إلى جزيرة أندمان الكائنة بخليج بنغال وبموجب هذا الحكم الصارم تم نقله في 1858 إلى الجزيرة المذكورة حيث قضى بقية حياته في ظروف قاسية وأحوال سيئة.

[1] - العلامة فضل حق الخيرآبادي، مخطوطة الثورة الهندية ، مع القصيدتين الهمزية والدالية، ص 64- 66

وبقي العلامة في هذه الحالة حتى سمع عن العفو العام من قبل الملكة فيكتوريا ورجع إلى أهله وداره ولكن سرعان ما تم إلقاء القبض عليه وجرت محاكمته في لكناؤ وفي نهاية الأمر نفي إلى جزيرة أندومان لقضاء بقية حياته فيها فلم يزل رهين الحبس في الجزيرة المذكورة حتى وافته المنية بتاريخ 20 من أغسطس 1961.

وفي الأيام الأخير حاول أولاد العلامة وقد بذلوا جهداً جهيداً لإطلاق سراحه وإعادته إلى أرض الوطن وفي هذا الشأن انهم اتصلوا مباشرة بسلطات الحكومة البريطانية وأوضحوا لها أن العلامة لم يكن يتوقع أن إعلان العفو العام من قبل الملكة فيكتوريا هو مجرد خدعة ومكيدة وليس الغرض منها إلا إغراء الثوار بالخروج من مخابئهم وكذلك أثبتوا لها أن العلامة لم يقتل شخصا ولم يشارك في الأعمال الإجرامية أيا كان ولم يكبد أحداً من الإنجليز أي ضرر وأذى أو خسارة وهو ليس ممن ارتكبوا الجرائم البشعة وعلاوة على ذلك فإن والده كان موظفا مرموقا في الشركة الشرقية الهندية وقام بخدمتها طوال عمره ولم يقصر قط عن واجباته الرسمية فكان يحظى بسمعه عالية لدى الحكام الانجليز وبناء على هذا كله اصدرت السلطات البريطانية حكم اطلاق سراحه وسمحت له بالرجوع إلى أسرته وموطنه فذهب واحد من فلذات كبده وهو شمس الحق بهذا النبأ السار إلى إندومان ليرجع به إلى مسقط رأسه. وفي هذا الصدد يقال إنه لما وطأت قدماه سواحل بورت بلير بجزائر إندومان رأى موكب جنازة فسأل شخصاً: لمن هذا الموكب؟ فجاء الرد: " للعلامة فضل حق الخيرآبادي" فشيع شمس الحق هذا الموكب وشارك في أداء الطقوس المتعلقة بدفن الموتى من المسلمين ورجع إلى بلده خائبا وخاسراً وصفر اليدين.

وذكر العلامة هذه الأوضاع المؤلمة في قصيدتيه الهمزية والدالية المنظومة باللغة العربية. وألفهما العلامة سراً واستخدم الفحم لكتابتهما على جدران غرفته في السجن والبعض من رفقائه الذين كانوا يعرفون اللغة العربية ويكتبون هذه الأبيات على أوراق مبثوثة ممزقة أو قطع من الثياب البالية أو ألواح من الخشب وهؤلاء الرفقاء كانوا يرسلون هذه الأبيات إلى مدينة كولكاته حيث كان يعيش أخوه الذي كان بدوره يجمع هذه الأبيات في مسطرة ويرتبها في صورة قصيدة وهاتان القصيدتان اللتان سماهما العلامة "فتنة الهند وكتابه الآخر

"الثورة الهندية" تكمن في طياتها الأحوال الحقيقية عن المعارك التي دارت أثناء الثورة بين المواطنين الهنود ومستبديهم الغاشمين وعن المظالم والمحن التي مر بها العلامة خلال أيام سجنه في جزيرة أندمان وفيما يتعلق بكتابه "الثورة الهندية" فهو في الحقيقة يتضمن ذكر مقاومة الهنود العنيفة ضد الاحتلال الأجنبي. ويعبر العلامة نفسه في كتابه قائلا: هذا وقد وصفت بعض ما نابني، ونبدأ مما أصابني في قصيدتين أحدهما همزية تحكي همزات الشياطين، والأخرى دالية دالة على ما يعاني هذا الحزين المزمين، وختمها بمدح سيد المرسلين، الرسول المكين والأمين، عليه أزكى صلوات المصلين وتسليمات المسلمين.[1]

هاتان القصيدتان وثيقتان تاريخيتان مهمتان لأن العلامة رأى كل ما حدث أثناء الثورة بعينيه ثم ذكرها في كتابه الثورة الهندية نثرا وفي القصيدتين شعرا. ومن المؤسف جدا أن هاتين القصيدتين لم تحظيا بالإقبال والتجاوب بين الناس والسبب وراء ذلك عدم نشرهما على نطاق واسع في الهند.

وأيا كان الأمر فإن القصيدة الأولى وهي القصيدة الهمزية تشتمل على مائة وستة وثمانين شعرا، وقد بدأها العلامة بذكر كيفية اعتقاله بعد نهاية الثورة، ثم أتى بذكر أحوال نفيه إلى الجزيرة الموبوءة، ثم ذكر الصعوبات التي عاناها أثناء حبسه في جزيرة أندومان، ثم أتى بأبيات في مدح النبي صلى الله عليه وسلم.



وأما القصيدة الثانية وهي القصيدة الدالية فهي تشتمل على مائة شعر. وقد بدأها بذكر أمراضه وصعوباته التي عاناها أثناء حبسه في الجزيرة، ثم ذهب إلى الخلف شيئا وألقى الضوء على أحوال بداية الثورة ونهايتها، ثم أتى بذكر الأيام التي تلت نهاية الثورة من قتل واعتقال الهنود. ثم أتى بأشعار في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، وقال في نهاية القصيدة: تمت القصيدتان في شهر رجب سنة 1276هـ يعني ألفا ومائتين وستا وسبعين من الهجرة المقدسة النبوية على صاحبها أزكى الصلوة والتحية ، وأنا محبوس في الجزيرة الوبية، نجاني الله سبحانه منها برحمته الوسيعة وقدرته البديعة، بجاه حبيبه وآله وعترته عليه وعليهم أزكى الصلوت وأسنى التسليمات.[2]

[1]- العلامة فضل حق الخيرآبادي، مخطوطة الثورة الهندية ، مع القصيدتين الهمزية والدالية، ، ص 61- 62

[2]- العلامة فضل حق الخيرآبادي، مخطوطة الثورة الهندية ، مع القصيدتين الهمزية والدالية، ص 120

نظم العلامة قصيدة أخرى وهي القصيدة النونية وأتى فيها بأبيات تقدم تاريخ الثورة وأسبابها ووقائعها وخيانات بعض الأمراء وخراب دهلي وخروجه منها، وأن القصيدتين الهمزية والدالية قد قرضهما العلامة جالسا داخل خليته في السجن، وأما هذه القصيدة النونية فقد نظمها العلامة بعد الثورة مباشرة قبل نفيه إلى جزيرة أندومان.وقد أشار العلامة في الثورة الهندية إلى هذه القصيدة فقد قال في نهاية الرسالة: وكنت قد نظمت قبل قصيدة، في قوافي النون، فريدة كالدر المكنون، كل بيت منها بيت القصيد، بل بيت مشيد، عدد أبياتها ثلثمائة أويزيد، لم يتيسر لي إتمامها، عاقني هجوم البلايا وارتكامها، مطلعها:

ماناح أو رق في أوراق أشجان    إلا وهيج أشجاني وأشجاني

فإن من علي ربي الخلاق، بالتخليص والإطلاق، ذيلتها بحسن التخلص بمدح من خص من مكارم الأخلاق، بأوفى خلاق، عليه وعلى آله أخلق الصلوت إلى يوم التلاق، والله سبحانه ولي التوفيق والإحقاق. [1]

ونحن بصدد ذكر قصيدتين الهمزية والدالية، فأما القصيدة الهمزية تصور فيها العلامة حاله في السجن إثر نهاية الثورة الكبرى في الهند عندما كان ينتظر محاكمته وإصدار القضاء في حقه، فيقول:

لجـــوى له بجوانحي إيـــــــراء    جمد الدموع وذابت الأحشـــــــاء
ولِما الَم من النـــــــوائب والنوى    يبكي الصديق ويشمت الأعدائي
قد كنت في عز وجــــاه كان في    أعيــــــان أعيــــــان به أقذأ
أسى الصديق على أساى وحار من    حوري وفي اسوى اَساء اِساء
شمت العِدى اذ حال حالي واعترى    ما شـــــاء بي المسّــاء والوشاء
المٌ المَّ بنـــــــا وهمٌ همنـــــا    ونوى لنا منهـــــــــا بلى وبلاء
حلت عظام مصــــائب جلت بها    وهن العظام ودقت الأعضـــــــاء [2]

ثم يكشف العلامة النقاب عن كيفية سيطرة الإنجليز على الهند بمساعدة من بعض الهنود، ويقول بمنتهى الصراحة أن الإنجليز قد خربوا ديار الهند وهدموا المساجد والمعابد بدون هوادة للديار وللمساجد والبيوت وكما

[1] - العلامة فضل حق الخيرآبادي، مخطوطة الثورة الهندية ، مع القصيدتين الهمزية والدالية، ص 62
[2] - العلامة فضل حق الخيرآبادي، مخطوطة الثورة الهندية ، مع القصيدتين الهمزية والدالية، ص 63- 64

يكتب عن مناظر الصوبات والمتاعب التي مربها الهنود إثر سيطرة المستعمرين الأجانب على الهند، إذ هو يقول:

قد سلط الأنصـــار في أمصارنا　　أن صار انصاراً لهم سفهـــاء
لم يعلموا ان لا وفـــاء لهم ولا　　أن لا لهم مندوحـــــة ووقاء
من قبل ولاهم عليهـــا من لهـا　　إذ صده عنهـــا غنى وغنـاء
والآن اذ نصر النصارى افرطـوا　　في الظلم فاخترم الضعاف جفاء
فتفرقوا أيدي سبـــا وادارکت　　فرقا كثيـــرا اخذة وسبـــاء
عـــال الغني وذل ذوعز كمـــا　　هان الخطـــير وصُغر الكبـراء
قتلوا وغالوا جل من اخذوا وهم　　ممـــا ادعوا من جرمهـــم براء
غالوا براياهم برايـــا غيـــلة　　فجرت كما انفجر العيون دماء
كم خــــربوا بلدا ولم يذرو به　　بلدا فصـــار كانه بيـــــداء
هدوا المساجد والقصور كانهـــا　　لم تبن لم يك ثم قط بنـــــاء
بخست بخستهم زروع الارض من　　شؤم فلا ريع لهـــــا ونمـــاء
قدروا على الناس والمعاش فقدر　　هم ان لا غذاء عندهم وعشاء
فظهورهم ثقلـــت باوزار بمـــا　　شحنت بطون صدورهم شحناء
افهل العـــــدوان تعدى حده　　حد وهل للمعتــــــدين جزاء
لم اقترف ذنبا سوى أن ليس لي　　مع هؤلاء مـــــــودة و ولاء
فولائهم كفـــــر بنص محكم　　ما فيه للمرء المحق مـــــراء
كيف الولاء وهم اعادي من له　　خلق السماء والارض والانشاء [1]

ثم أتى بأبيات في مدح النبي صلى الله عليه وسلم فيقول:

هو أول النـــور السنى تبلجت　　بضيائه في العالم الاضـــواء
هو أول الانبيـــاء آخر هم به　　ختم النبـــوة وابتدا الإبداء
بدء به أبدى المهيمن ســـــره　　فلأجلــــه الايداء والابداء
قد حصه الباري بأوصـــاف على　　لم يعطها الأحداث والقدمـاء
أعطاه فضـــــلا ليس يمكن أن　　يكون له شريك فيه أوشركـاء
اسماه اذا سمـــاه بالحسنى فمن　　أسمـــاء خالقه له أسمـــاء

---

[1]- العلامة فضل حق الخيرآبادي، مخطوطة الثورة الهندية ، مع القصيدتين الهمزية والدالية، ، ص 81- 85

بررحيـــــــم مفضـــــــل ذوقوة هاد رؤف محسن معطـــــاء [1]

وختم العلامة هذه القصيدة بالدعاء إلى الله تعالى راجيا منه أن يغفر له ذنوبه وينجيه من الكرب العظيم الذي يعانيه في المنفى ومن دعواته:

يا رب حقق لي رجـــائي ولا يكن لي في النجاة من العدى أرجاء
قد قمت ازجى القاعدين الى الوغى وقعدت لمـــا قامت الهيجـــاء
أجرمت اذا حجمت من كسل فلم اشهد اذا ما استشهد السعداء
رب اعف عني ما اقترفت واعفني فرجائي منك العفــو والاعفــاء
إن جم إجرامي فعندك رحمــــــة ما حد هــــا حد ولا إحصـــاء
فاغفر وعاف وتب على فنجني مما ابتلاني الخصم و المشاء
ان كان ما شكوة مقضيــا فكم بدعـــاء مظلوم يرد قضـــــاء
لا تشقني أبدا واسعــــــدني فلا نيتاب من بعد السعود شقاء [2]

وأما القصيدة الدالية تبدو امتدادا للقصيدة الهمزية فقد بدأ العلامة الخيرآبادي هذه القصيدة أيضا بذكر الأحزان والآلام والكآبة التي ملأت قلبه والأمراض العديدة التي أصابته بعد أجبر على قضاء حياته في جزيرة أندمان الموبوءة، فيستهل هذه القصيدة مخاطبا حبيته على طريقة الشعراء القدماء، فيقول:

عودي فعودي مريضا داءه عادي أشفى على الحين حتى عاده العادي
عواد سقــــــم قلى عواده ولهوا وكان يلهى بزمــــــار وعــــــواد
واعتـــاد عيد ودى كل الاساة به فعـــــاد كلا على أهل وعـــــواد
داء دواه عيـــــــــاء لا دواء له حمامه حاضر من سقمه البـــــادي
ويلاه من زمن لا يشتفي زمنـــا علاجه ليس يجدي غير إكمـــــاد
دائي عضال ولايجدي بعــــائدة عود لداء بعـــــواد الداء عـــــواد
حشا حشاي جوى يشوي الجوانح والحشـــا كنار غضا تورى بإقــــاد
كم بين نار حشا التنور موقدهـا وقودها حطب من بعض أعــــواد
وبين نارجوى يصلى جـوانحنـــا وقودها من حشــــا منا وأكبـــاد

[1] - العلامة فضل حق الخيرآبادي، مخطوطة الثورة الهندية ، مع القصيدتين الهمزية والدالية، ص 85- 86
[2] - العلامة فضل حق الخيرآبادي، مخطوطة الثورة الهندية ، مع القصيدتين الهمزية والدالية، ص 95- 96

ولى السعود فلا سلمى تسالمني ولا سعـــــاد تداريني بإسعـــاد
خلقي تتكر حتى كاد ينـــكر لي من كان يعرفني من يوم ميلادي
فقوتي ضعفت والضعف ضوعف من تنقص في القوى والجسم مزداد
لم يبق لي جلد ممـــا أصيب به قلبي وروحي وجثماني وأجلادي [1]

ثم يقول العلامة في قصيدته عن أندمان وجوها وطقسها، كما يتذكر الأيام والليالي التي قضاها في الجزيرة مواجها صعوباتها ومتاعبها والعقوبات التي أنزلها الإنجليز عليه، ومنها:

أرواحـــه تنزع الأرواح من خبث كصرصر أرسلت قبلا على عاد
خاب المنا والمنا قد عم فيه وما لميت فيـــه من دفن والحـــاد
يفيض فيه همومـــا جمة أبدا غيم هموم فســـار رائح غـــاد
فلا يرى فيه يوما ضوء شمس ضحى ولا سنانير بالليل وقـــــاد
يومي كليلي وليلي سرمـــد تقف النجوم فيه كان شدت بأوتاد
كانت كأيامنـــا بيضـاديا جرنا وكأن أيامنـــا أيام أعيـــاد
كيف احتيالي لإطلاقي وقد ضربت علي أرض اقلتني بإســــداد
كيف الخلاص وخصمي ظالم شكس ويلاه من كافر بالله كنـــاد
أغرى النصارى بتعذيبي زنادقـــة يلونهـم وتولوهم لإلحـــــاد
غاظوا وجدوا ولجوا في معـاقبتي عادوا وبادوا باضغان وأحقـــاد
أيست من أملي إذ قطعت حيلي وحرت كالطير في أحبول صياد
كالظبي في جرة أمسي يناوصهـا وقد يسالمها من خوف مصطاد
رجوت ناسا رجا من أمحلو سحبا قد أقلعت بعد إبراق وإرعـــاد [2]

وكتاباه في الحكمة الإلهية المعنونان بـ الهديّة السّعديّة في الحكمة الطبيعية، والروض المجود في تحقيق حقيقة الوجود خير شاهد على براعته الفائقة في العلوم العقلية وبالإضافة إلى هذا كله فإنه كان يمتلك نواصي الشعر والأدب العربي، وكان يقرض الأبيات باللغة العربية وكأنّ الكلمات والتعابير

[1] - العلامة فضل حق الخيرآبادي، مخطوطة الثورة الهندية، مع القصيدتين الهمزية والدالية، ص 100-102

[2] - العلامة فضل حق الخيرآبادي، مخطوطة الثورة الهندية، مع القصيدتين الهمزية والدالية، ص 111-113

والتراكيب التقليدية تصطف أمامه وهو يختارها ويستعملها في كلامه البليغ بدون تكلف وعرقلة فما خطرت بباله أيّةُ فكرة إلا وكان يسكبها بجدارة في قوالب الشعر وكانت قريحته الفياضة لاتجد أي مانع في نظم خواطره ومشاعره فبفضل هذه الموهبة الخارقة خلف وراءه أكثر من أربعة آلاف بيت باللغة العربية وهذا الكم الهائل إنْ دلَّ على شيء فإنه يدلّ على تضلّعه الفائق في اللغة العربية وآدابها ومن الجدير بالذكر هنا أن معظم أبياته العربية في مدح النبي وكل من يقرؤها يجدها مفعمة بصدق العاطفة وحرارة القلب الملتاع المنغمس في الحب النبوي. وطريقته هي أنه ينظم القصيدة في أي موضوع من الموضوعات الشعرية ويختمها بأبيات في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، ولايعني ذلك أنه يأتي ببيت أو بيتين في مدحه في خاتمة القصيدة، بل هذه الخاتمة قد تبلغ بعض الأحيان إلى عشرات من الأبيات المتينة في مدح سيد البشر، وفي كثير من القصائد يتبع الأبيات في المدح بأبيات يدعو فيها النبي صلى الله عليه وسلم أن يشفع له إلى الله بالمغفرة والهداية، وأحيانا يدعو الله مباشرة للمغفرة بفضل رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم. نجد قصيدة العلامة الخيرآبادي البائية التي تشتمل على ستة وسبعين بيتا، وآخر أبياتها يتضمن مدح النبي صلى الله عليه وسلم ومنها:

وأول رسل الله آخر هم فمـــــا ... له من مساو في العلى ومقـارب
مكين مثيل مثله ليس ممكنـــا ... وويل لمشكوك عن الحـق ناكب
يفوق النبين الكــــرام نقيبة ... فمنه استفادوا ماله من منـــاقب
سما فوقهم كالشمس فوق كواكب ... السموات أوكالملك فوق الكواكب
له خلق الله الأراضي والسمـــاء ... وما بينهما أو فوقهما من عجائب
فلولاه لم يوجد خميـر وطنيـــة ... لآدم فضلا عن وليـــد وعــاقب
ولو لم يكن في صلب نوح لما استوت ... سفينته بعد التطام الغـــوايب
ولولاه في صلب الخليل لما نجا ... ببرد لهيب لاقح الحـــر ثاقب [1]

وللعلامة قصيدة دالية تشتمل على مائة واثنين وعشرين بيتا نصفا الأول في الحب والغرام، وأما النصب الأخير فهو في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، ومنها:

[1]- قصائد العلامة فضل حق الخيرآبادي، المخطوطة ، مكتبة مولانا آزاد، جامعة عليجراه الإسلامية، ص 6

بدر الهدى جلى سناه دجى الورى وأنارهم بضيائة الوقـــاد
هو رحمة عم العوالـــم إنهـــا لولاه لم توجد مدى الآبـــاد
لولاه لم يكن الوجـــود ولم يكن اسم ولارسم من الأيجـــاد
بر رحيم مصلح لصـــــلاحه عم الصلاح وزاح كل فساد [1]

وقصيدة الرائية التي تحتوي على مائة وخمسة وعشرين بيتا ، وهذه القصيدة كلها في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، ومنها:

رؤف رحيــــم فاتح خاتم هدى سراج منير للعـــــوالم نور
وأمثلهم خلقا وخلقا فمــــاله مثيل مساو في العلى ونظيــر
أخيـــر يفوق الأولين بأســـرهم وكم أول يربو عليه أخيــــر
بدا دينه كالشمس في الضحو مشرقا ولاغرو أن يرتاب فيه كنـــور
أتانــــــا بذكر تطمئن بذكره قلوب ويشفى ما شتكته صدور [2]

للعلامة قصيدة سينية مدح فيها النبي صلى الله عليه وسلم كما يلي:

خير الخلائق أرضاهم وأحمدهـم خلقا وخلقـا رسول الجن والإنس
حامي الحقائق مبديها ومبدأهـا حق بدا وتجلى غيــــر ملتبس
ماذر من ذرة إلا ومخرجهـــــا من الظلام بنـــور منه منعـكس
محمد خير من ساد الأنام ومن جلى الظلام بنور غيـــر منـطمس
وكم أغاث فغاث الأرض ودعوته بقطر غيث بقطــــر ممحل يبس
أومي إلى القمر البادي بإصبعه فانشق منه انشقاق الأثواب الدرس [3]

وكذلك قرض العلامة قصيدة عينية مدح فيها النبي صلى الله عليه وسلم قائلا:

قد اختصه الباري باعلى فضائل خصائص تأبى الاشتراك وتمنع
به ختـــم الله النبيين وابتـدأ به الخلق بل لولاه لم يك مبدع
نذير نظور مستحيل نظيــــره بشير بشير باسم البشر أروع
فهذا هو الحق اليقين فلا تقل كما كان يهذي ساكع متسكع [4]

---

1- قصائد العلامة فضل حق الخيرآبادي، المخطوطة ، مكتبة مولانا آزاد، جامعة عليجراه الإسلامية، ص 9
2- قصائد العلامة فضل حق الخيرآبادي، المخطوطة ، مكتبة مولانا آزاد، جامعة عليجراه الإسلامية، ص 15
3- قصائد العلامة فضل حق الخيرآبادي، المخطوطة ، مكتبة مولانا آزاد، جامعة عليجراه الإسلامية، ص 3
4- قصائد العلامة فضل حق الخيرآبادي، المخطوطة ، مكتبة مولانا آزاد، جامعة عليجراه الإسلامية، ص 7

له قصيدة هائية تشتمل على مائة واثني عشر بيتا وقد خص نصفها الأخير لمدح النبي صلى الله عليه وسلم، ومن أبياتها:

هو أول في الخلق أرسل آخر — وأذيع في زبر الأوائل صاته
فالرسل قد ختموا بأفضل مرسل — رفعت على درجاتهم درجاته
لم يعط يوسف ولا الخليل ولا ابنه — قسماته وقسيمه وأناته
مرقاة موسى الطور في الوادي طوى — والعرش فوق ذرى السما مرقاته
لم يعط داؤد اولا مولوده — سلطانه وولاءه وغزاته
الفضل كان موزعا بين الورى — فتجمعت في ذاته أشتاته
هو مظهر اسم الله تحوي ذاته — ما تحتوي اسماءه وصفاته
نور سراج قد تلألأ أولا — وسنا العوالم كلها جذواته
لولاه لم يكن الوجود ولم يكن — فلك ولا آفاقه وجهاته [1]

وأما قصيدته الميمية فهي تشتمل على اثنين وتسعين بيتاونصفها يتعلق الغزل والغرام، وأما النصف الأخير فهو في مدح النبي صلى الله عليه وسلم والدعا إليه للشفاعة، فيمدح العلامة سيد البشر صلى الله عليه وسلم:

أبو الناس أنداهم يمينا — وأوفاهم جميعا بالندام
سما من في السما والأرض فخرا — فليس له سمى أو مسامى
مشاع الفضل منقسم العطايا — وما للفضل فيه من انقسام
فليس له عديل في اعتدال — وعدل أو قسيم في قسام
محى وحمى أباطيلا وحقا — فما أعلاه من ماح وحام [2]

يختم هذه القصيدة بالدعاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم طالبا منه الشفاعة إلى الله ليوفقه الحج والعمرة وزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة المنور، ويشفع له يوم القيامة للمغفرة، فيقول في هذا الشأن كما يلي:

ألا يا عاصمي من كل هول — ويا من حبل رأفته عصامي
تصرم جل عمري في الملاهي — وما لهواي بعد من انصرام
فما لي غير لطفك من ملاذ — يكون به اعتضادي واعتصامي

---

[1] - قصائد العلامة فضل حق الخيرآبادي، المخطوطة ، مكتبة مولانا آزاد، جامعة عليجراه الإسلامية، ص 30

[2] - قصائد العلامة فضل حق الخيرآبادي، المخطوطة ، مكتبة مولانا آزاد، جامعة عليجراه الإسلامية ، ص 17

فســـل ربي ليود يني شـيدا بطيبة عنـــد عزيك الكـــرام
ويوزعني بحج واعتمـــــار فارغب في الحطيم عن الحطام
ويدخلني أزورك في حياتي مزارك، مستكينـــا باستـــلام
وكن لي في ثرى قبري أنيسا وكن لي شافعا يوم القيـــام
أنا الصـــادي فناولني شرابا طهورا سائغـــــا يروي أوامي
إلام أحوم عطشـــانا هيوما وبحـــر نداك غمر اللج طامي
عليك صلاة ربك ما تغنت على ورق الغضا ورق الحمام [1]

وكان العلامة فضل حق عالما نحريرا وفيلسوفا كبيراً وأديبا أريبا وشاعراً فذاً وبلاغيا موهوباً ولم يكن له ند في ذلك الزمن في امتلاك نواصي اللغة العربية وآدابها في الهند وقد منحه الله ذكاء خارقا وذاكرة قوية ولم يكن يقرأ شيئاً إلا كان يدّخره في ذهنه للأبد فبفضل هذه الذاكرة القوية فقد تفرّغ من دراسة العلوم المتداولة في أقل فترة ممكنة وبدأ يلقي دروسا أمام طلبة العلم وهو ابن خمسة عشر عاما فالناس كانوا يغتبطون بذهنه الوقّاد وفهمه الأخّاذ، ومن أحبِّ موادِّه العلمية كانت الحكمة والمنطق والفلسفة فكان يستنبط المباحث العلمية والقضايا الفلسفية بأسلوب عقلاني ولم يكن يكتب شيئاً إلا و كان يدعمه بالبراهين والدلائل القاطعة ، وكان يعترف بعلو كعبه في الفنون والعلوم الآنفة الذكر ألدُّ خصومه وأشدُّ معارضيه ويقول مولوي رحمن علي عن تفوقه العلمي:فاق أقرانه في علوم المنطق والفلسفة والأدب والكلام والأصول والشعر. [2]

ويقول منشي أمير مينائي عن علمه: أفضل الفضلاء وأكمل الكملاء مولانا فضل حق برد الله مضجعه، كان مجتهدا في الفنون الحكميية وأديبا كبيرا، ذكيا مدققا ومحققا انتفع به مئات من الناس حينما سافر إلى المدن. [3]

---

[1] - قصائد العلامة فضل حق الخيرآبادي، المخطوطة ، مكتبة مولانا آزاد، جامعة عليجراه الإسلامية، ص 18
[2] - المولوي رحمن علي، تذكرة علماء هند، ص 382- 383
[3] - منشي أمير مينائي ، انتخاب ياد غار، ص 291

وكذلك يعبر النواب صديق حسن خان القنوجي عن رأيه عن العلامة قائلا: إنه كان إمام وقته في العلوم الحكيمية والفلسفية بلامدافع غير أنه وقع في أهل الحق ونال منهم على تعصبه، وكان السبب في قلة الخبرة منه بعلوم السلف وطريقتهم في الدين واتباعهم للأدلة والواردة من سيد المرسلين مع ميل إلى البدع التي يستحسنها المقلدة، ولذا انتقد عليه عصابة من علماء الحق. [1]

ويمدحه السيد سليمان الندوي قائلا: لقد أصبح مولانا فضل حق بن فضل إمام الخيرآبادي مثل ابن سيناء عصرة لتفوقه وبراعته في المعقولات، فقد سافر إليه الطلبة من كل فج عميق، وروجوا المنطق والفلسفة في البلاد على طراز جديد. [2]

وكان العلامة مولعا بالشعر مند نعومة أظفاره، وفي البداية كان يعرض أبياته على أستاذه الشاه عبد العزيز الدهلوي ليقوم بتصحيحيا، وفي فترة وجيزة بلغ العلام ذروة الكمال في الشعر والأدب حتى سبق على شعراء عصره ونظم قصائد بليغة وأشعارا متينة رصينة بأسلوب سليم عن الصنعة والتكلف. وترك ثروة شعرية لا يستهان بها، هي جواهر نادرة للأدب ولكن للأسف بقيت قصائده بين دفتي المخطوطات إما في المكتبات أو عند بعض الأشخاص ولم تر النور حتى الآن.

## الخاتمة

لا مراء في ذلك أن الهند من الأمم العريقة ذات الثقافة والحضارة العالية القديمة، التي كانت لها على مر التاريخ صلات مع الأمم حولها لاسيما بلاد فارس والجزيرة العربية، ولكون أرض الهند خصبة وموسمها معتدلا وموقعها جذاباً على خريطة العالم رغب الأجانب في التجارة معها ثم السيطرة عليها وكذلك قامت الشركة الشرقية الهندية وسيطر عليها المستعمرين الأجانب ودوخوا البلاد والتهبت نار الثورة لإجلائهم من البلاد ولكن أهالي البلاد فشلوا

[1] - النواب صديق حسن خان، ابجد العلوم، الجزء الثالث، ص 932

[2] - سيد سليمان الندوي: حيات شبلي، ص 22- 23

في الثورة وشارك في هذه الثورة من العلماء والأدباء والشعراء المتضلّعين في الثقافة والبارعين في اللغة العربية وآدابها وتكاتف الثوار المناضلين ضد النفوذ الأجنبي واستخدموا بدلا من العدة والعتاد أقلامهم ويراعهم للمحاربة ضد العدو الغاشم الذي قد احتل البلاد بمنتهى المكر والخداع وكان من أبرز هؤلاء العلماء والمثقفين العلامة فضل حق بن فضل إمام الخيرآبادي (1797- 1961) الذي لعب دورا رياديا في استنهاض الهمم ورفع المعنويات للثوار والمكافحين في سبيل الحرية والاستقلال وهو في هذا الأمر لم يكن خائفا من قوة الاستعمار الأجنبي الذي كان بحوزته أسلحة فتاكة مدمرة ولسوء الحظ فشلت الثورة ونفي العلامة إلى جزيرة أندومان لقضاء بقية حياته فيها فلم يزل رهين الحبس في الجزيرة المذكورة حتى وافته المنية بتاريخ 20 من أغسطس 1961. وهنا كتب العلامة القصيدتين باللغة العربية وتكمن في طياتهما الأحوال الحقيقية عن المعارك التي دارت أثناء الثورة بين المواطنين الهنود ومستبديهم الغاشمين وعن المظالم والمحن التي مر بها العلامة خلال أيام سجنه في جزيرة أندمان، فهاتان القصيدتان وثيقتان تاريخيتان مهمتان لأن العلامة رأى كل ما حدث أثناء الثورة بعينيه ثم ذكرها في كتابه الثورة الهندية نثرا وفي القصيدتين شعرا. ولم يكن له ند في ذلك الزمن في امتلاك نواصي اللغة العربية وآدابها في الهند وقد منحه الله ذكاء خارقا وذاكرة قوية ولم يكن يقرأ شيئاً إلا كان يدّخره في ذهنه للأبد ونظم قصائد بليغة وأشعارا متينة رصينة بأسلوب سليم عن الصنعة والتكلف. وترك ثروة شعرية لا يستهان بها، هي جواهر نادرة للأدب ولكن للأسف بقيت قصائده بين دفتي المخطوطات إما في المكتبات أو عند بعض الأشخاص وهي تحتاج إلى البحث والتحقيق والنشر ليستفيد بها الناس.

﴿.......﴾

## المصادر والمراجع


1- العلامة أبي حنيفة أحمد بن داؤد الدينوري، الأخبار الطوال، الطبعة الأولى سنة 1330هـ بمطبعة السعادة بمصر

2- العلامة فضل حق الخيرآبادي، مخطوطة الثورة الهندية ، مع القصيدتين الهمزية والدالية ، مكتبة مولانا آزاد، جامعة علي جراه الإسلامية.

3- قصائد العلامة فضل حق الخيرآبادي، المخطوطة ، مكتبة مولانا آزاد، جامعة عليجراه الإسلامية.

4- العلامة عبد الحي الحسني ، الثقافة الهندية في الهند. مجمع اللغة العربية دمشق، 1983م.

5- السيد غلام علي آزاد البلغرامي، سبحة المرجان في آثار هندوستان، معهد الدراسات الإسلامية ، جامعة عليجراه الإسلامية ، عليجراه ، 1976.

6- أبو الحسن على الندوي، المسلمون في الهند، المجمع الإسلامي العلمي، ندوة العلماء لكناؤ ، 1998م.

7- الدكتور عبد المنعم النمر، كفاح المسلمين في تحرير الهند، مكتبة وهبة مصر، 1964م.

8- الدكتور عبد المنعم النمر ، تاريخ الإسلام في الهند، دار العهد الجديد للطباعة ، القاهرة، 1959م.

9- قمر النساء ، العلامية فضل حق الخيرآبادي مع تحقيق كتابه الثورة الهندية، المكتبة القادرية بالجامعة النظامية الرضوية، لاهور، 1985م.

10- مولوي رحمن علي، تذكرة علماء هند، باكستان هستاريكل سوسائتي، كراجي، 1961م.

11- السيد سليمان الندوي، حيات شبلي، دار المصنفين، اعظم جراه، 1985م.

12- منشي امير مينائي، انتخاب يادغار، تاج المطابع، لكناؤ، 1290 هـ.

13- محمد سليمان المنصورفوري، علماء حق اور ان كى مجاهدانه كارنامى، فيصل ببليكيشنز ، ديوبند، 2003م.